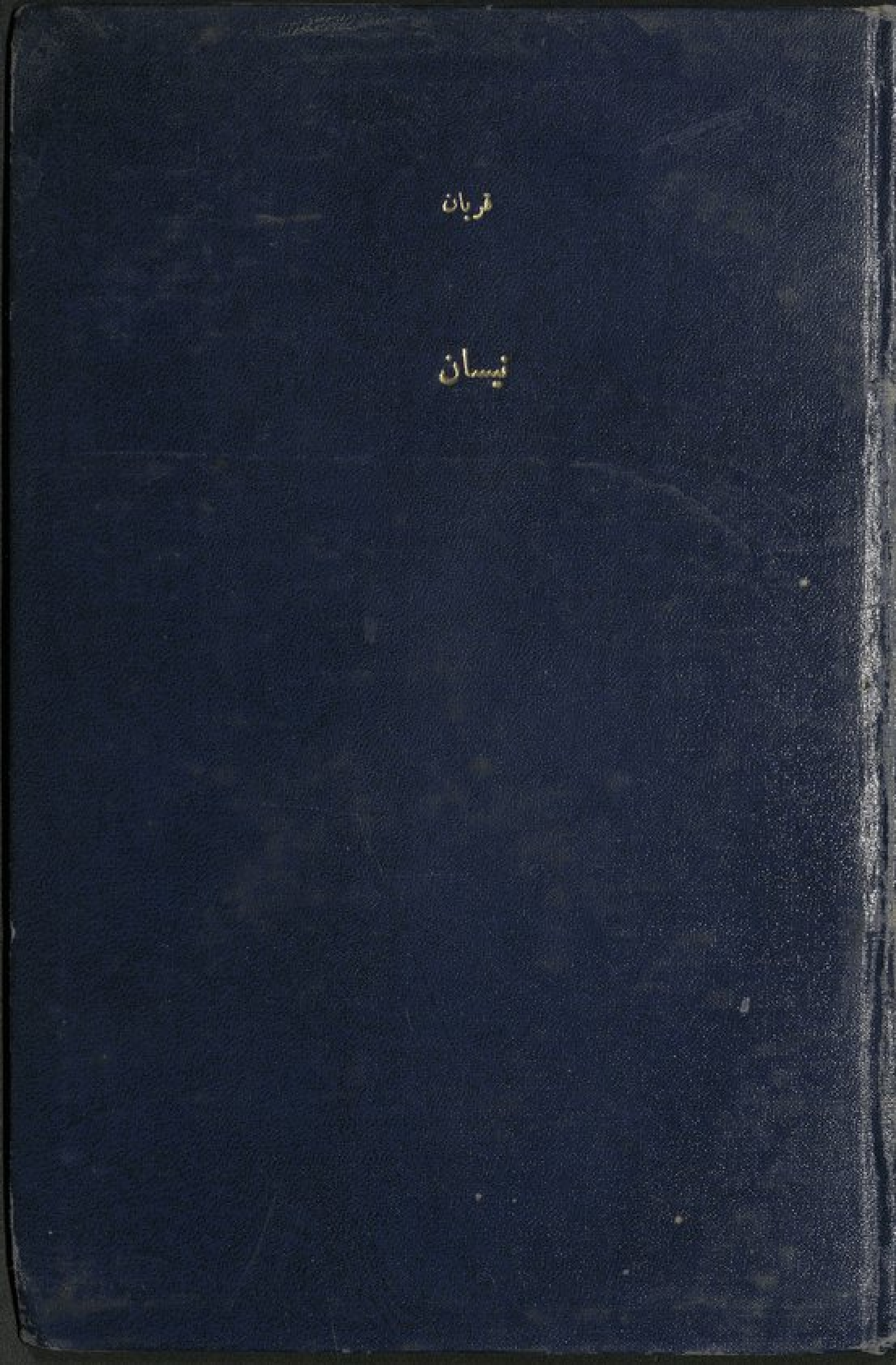

قربان
نیسان

نيسان

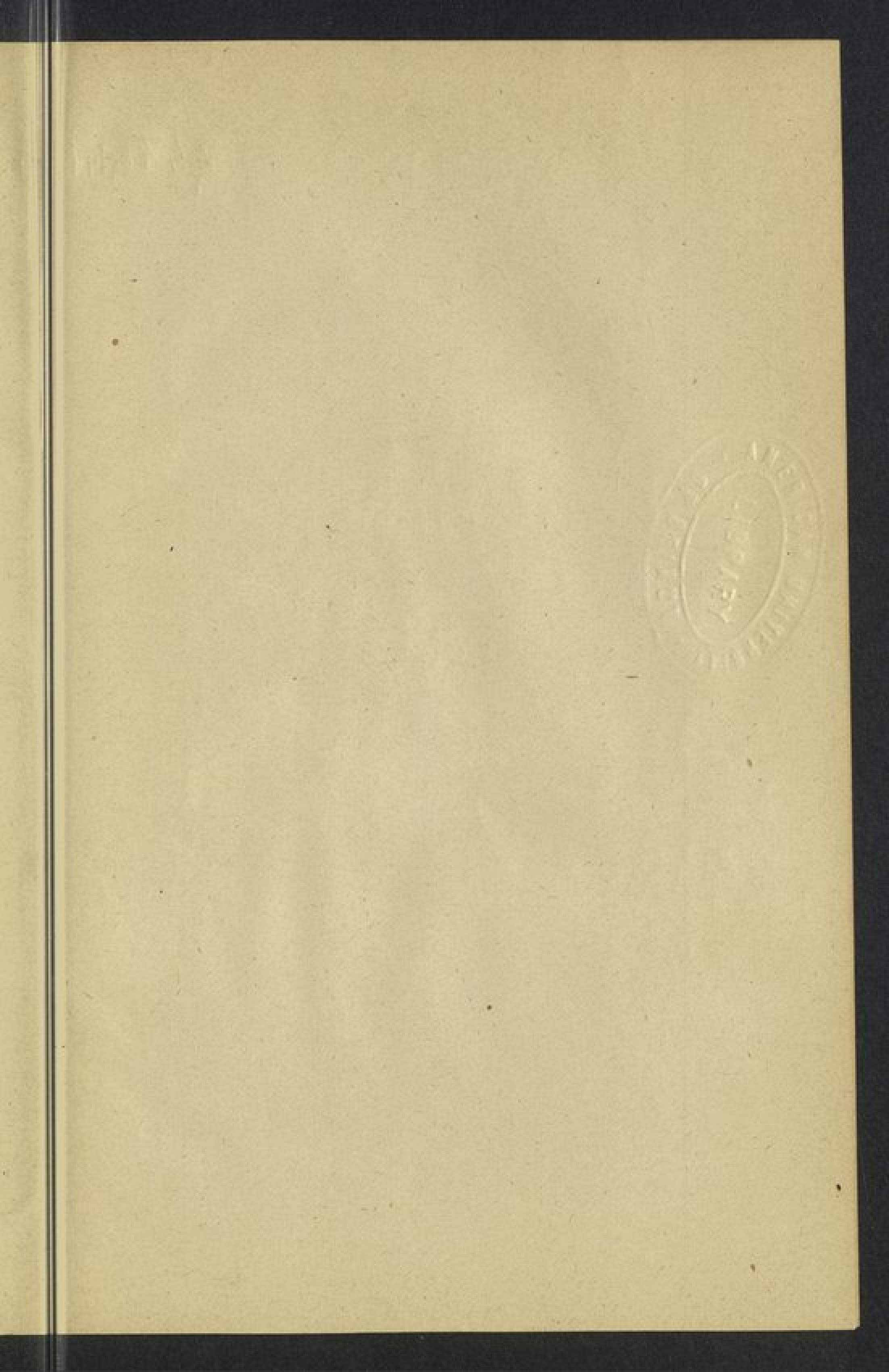


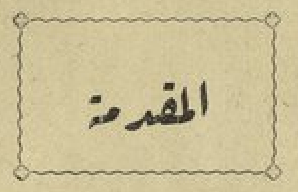
تقدمة احترام وإعجاب للأستاذ
ألبير أديب، أحد عشاق
الفكر الحديث في الشرق العربي

نقولا قربان

نقولا قربان

نيسان





المقدمة

عندما تولد امرأةٌ في قلب شاعر، تولد العناقيد في ظنّ الدوالي، ويكثر الزهرُ والثمرُ على راحات السفوح، وتحبل الارض بدفء الشمس وفضّة القمر، ويملأ الخصب أحداق الوجود. وعندما يغمس الشاعر ريشته في قلبه، يكون ككلّ ما يحمل الحياة: كالطفل يعضّ تفاحةً بملء أسنانه النهمة، وكالفلاح يغرز السكة في الارض، وكالحاصد يجري في عروقه شهقة المنجل على السوق المذهّبة، وكالرّاعي وامرأته يشربان الحليب من ضرع العنزة، وككل ما له شفةٌ من لحم، أو من حجر، أو من خشب، أو من تراب، يخطُّ الفرح والألم والسماح، عليها، كلمة البقاء.

*

وهذه نَيْسان ، لثغةُ نار في ظَنّ بعض الحروف ؛ وبنتٌ ، لا من صنع الاسطورة والخيال ، بل من لحم ودم ، أحببناها أنا والليل ، وعشنا معاً بعض الفصول . وإذا كنتَ ايها القارىء ، صاحب حشريّة ، وأردتَ أن تعرف من هي نَيْسان ، فإنها فتاة تعيش في خيالكَ وحياتك ، كما عاشت في خيالي وحياتي ؛ وهي لكَ أكثر مما هي لي : دفقةُ حُب تلقاكَ في كل حبّة تراب من هذه الأرض الطيّبة التي ندعوها لبنان . فلمثل هذا الحبّ كانت أرض لبنان . لذلك فإن هذا وحده يكفي باعتقادي ، لحثّ الناس على النضال المعطاء ، ضدّ من يحملون الفقر والتخريب لهذه البلاد ، وضدّ من يمدّون أيديهم الصفراء ، لتشويه وجوه الحبّ والجمال ، فوق أيّة حفنة تراب .

*

ولاتحسبنْ أنّ « نَيْسان » نوع من الترف الفكريّ ، ومن أدب الموائد المهترئة ، وأدب المستنقعات . بالعكس أن هذا الكتاب ليعرضَنْ بين يديك مشكلة الاخلاص الذاتيّ ، والصدق الفنّي : فإنكَ إذا أحببتَ وردةً وأحببتها بصدق ، وإذا أحببتَ فسطانا وأحببته بصدق ، وإذا أحببتَ عصاً او كتاباً او امرأة وأحببتها بصدق ، لتجدَنْ في «نَيْسان» صدى لروحكَ ، وصورة لحبك ،

ومعنى من معاني ذاتك الخالدة العظيمة . وإنني إذا علمتُ أنكَ تستطيع حبَّ شوكةٍ أو وردةٍ بصدق ، لمتأكد بأنك تستطيع حبَّ فضائل العقل والقلب ، وحبَّ أيِّ وجه من وجوه الصراع والتضحية . وإنني لمتأكد ايضاً ، بأنكَ أول من يسكب خنجره في أيِّ صدر من صدور الطغاة ، حين يولد طاغية في الارض ، ليخنق الفرح في محاجر الكائنات ، ويمدّ يده إلى الشمس ، ليدنّس بعهر مخالبه ، نصاعة النور وكبرياء الحياة .

*

أردتُ بهذا أن أضع الصدق والاخلاص موضع الأساس من شخصية المرء ؛ وأردتُ أن أقول أكثر من ذلك : أن أزفّ للناس بُشرى : لكلّ طاغيةٍ في دنيا الخيّرين خنجر يولد في ضمير الكون ، وعلى نصله كلمة دم . وذلك عندما يُخلص الخيّرون للخير أو الحقّ أو الجمال .

*

وما « نَيْسان » إلا كلمة الدم على لساني : خليقة حُب أوّل ، يختصر الطفولة والشباب الطريّ ، وتضمّخه أجواء القرية بأروع ما فيها ، ويستمدّ من الطبيعة البكر أكثر عناصره ، وينسجم مع الفصول الأربعة ، فيتأثر

بحالاتها ، وينتهي بها مع الخريف . لذلك فإنّ الجوّ فيه جوّ ضاحك ، جوّ الزهر والقمر ؛ لأننا في لبنان قد نُحرَم من سعة العيش ، ومن البيت الغنيّ والفرش الوثير ، ومن الكساء الموشّى والغذاء السمين ، ومن أُبهة العائلة وعنجهيّة الوجاهة ؛ ولكننا لا نُحرَم من ثراء الطبيعة ، ومن مواسم الورد والقمر ، ينعم بها الفقير بقلبه وضميره أكثر من الغنيّ .

*

و«نَيْسان» قصة واحدة متتابعة ، ذات بدءٍ ونهاية ؛ وهي تتطوّر مارّة في مراحل تصاعديّة ؛ والحبّ فيها يتمرّس بجميع الحالات النفسانيّة ، من تشوّق ، وفرح ، وحسد ، وألم ، وكبرياء ، وحنين ، ويأس ، وأنين ، وشهوة ، وعفاف ، وفناء ، وبكلّ ما ينبثق من روح الانسان وجسده ، وبكلّ ما يعطيه الصبا من أحلام ، وأنداء ، وألوان . وقيمة هذا الكتاب أبعد من قيمته الفنّية المجرّدة ، فهو تعبير عن عمر معيّن ، طافح بالخيال يحدّ الدنيا فيمن يُحِبّ ، وتصهره الشهوة المكبوتة ، ويميل من طبعه إلى تجسيد الأشياء وتأنيسها ، وإلى الامتزاج فيها امتزاجاً كلياً . ضِفْ إلى ذلك أنه نوع من الخلق الذاتيّ ، الصادر عن كليّة « الأنا » التي تَصليها العاطفة القويّة بنارها .

*

وإنني أحذّر القارىء من قراءة « نَيْسان » كما اعتاد أن يقرأ كليشاهات الأدب والشعر . « فنَيْسان » بعض حروف من دم ، ولحم ، وعطر ، وثلج ، وضوء ، ونار؛ حروف تتنفس ، وتحسّ ، وتتحرّك ، وتنصهر في سمفونيّة واحدة، لها ألف مدى أزرق ، وألف شرفة زرقاء . أمّا الاسلوب فهو قائم على التكافؤ ما بين المعنى والمبنى، ما بين المحتوى والوعاء، ما بين السائل والاناء ، ما بين المادّة والروح . وهو تجاوب ، ليس لثنائيّة الانسان التي تفصل ما بين الروح والجسد ، بل لوحدته المتراصّة التي تعطيه صفة وجوده الانسانيّ . اما التجديد فمداره ذاتيّة التعبير ، وما ينتج عن هذه الذاتيّة من ضبط للحروف ، ومن تحكّم في الكلمات ومقاطعها ، ومن مزجها ، على مدى العبارة ، في بوتقة الجرْس واللون .

*

ومن هنـــا نظريّة تدنيس الكلمة ، اقدّمها للذين يلوكون ويجترّون ما ثقلت به بطون الكتب ، أولئك الذين يكدّسون في جواريرهم عبارات جاهزة ، وأساليبَ ناجزة ، يستعملونها متى شاؤوا ، وفي كل سانحة يشاؤون، حين يوهمون بأنهم من الخلق السويّ، خلاقون مبدعون، يضيفون الى خزانة العربيّة ما ودّوا أن تنتهي العربيّة به ؛ أولئك السكّافون ، أو باعة الكعك ، أصحاب

العقم الفكريّ ، الذين يملكون قوالبَ واحدة دائمة ، لا تحول ولا تزول . وأُقدّم نظريّة تدنيس الكلمة ، للذين يغرزون أنوفهم في عينك قائلين : « إن البلاغة في اللغة العربيّة أثّرت على الفكر العربيّ ، وعلى مجالات الخلق في جميع نواحيه ، بأن جمّدت اللغة في اتجاهات تعبيريّة معيّنة ، وفي أساليب واحدة ، بُعدّ كلّ من يحاول الابتعاد عنها خارجياً من الخوارج . » ليست العربيّـــة مجموعة من الألواح ، أو الطناجر الصدئة ؛ والبلاغة العربيّـة لا تعني التقليد ، واجترارَ القوالب ، وحصرَ اللغة في طرق من التعبير ضيّقةٍ أزليّة ؛ إنما العربيّة مجموعة من الطاقات الروحيّة، المنفتحة على الابعاد، والقابلة للتغيير والتجديد في اتجـاه الطاقات الروحيّـة الانسانيّة ، وهي عالم من الامكانات التي يخرّ عند بابها راكعين ، حتى الجبابرة المتجبّرون .

*

وطريقة التدنيس هذه، حدودها مدى الذات الرحب، تنصهر فيه ، وتعانق وهاده ، ومهاده ، وأباطحه ، وذراه، وتنفذ إلى جميع عوالمه ، وتجري في جميع ديماميسه المظلمة، وأزقته المليئة بعَطن الأنا الانسانيّة ، ثم تتأنس في كلمة وكلمة ، وعبارة وعبارات ، مولوداً جديداً يحمل في

جسده أكثر من أبعاد الروح . فتنجو الكلمة من التحنيط الموميائيّ ، وتكون قمقم الطيب المكسور ، وزهرة البنفسج الذبيحة الصدر ، وزقّ الخمر في القبو العتيق ؛ وتكون العبارة خزّاناً فسيح الجدار ، عميق القرار ، يختزن فيه الشاعر أكبر طاقة ممكنة ، تنتج عن أعصابه ودمه ، وجميع قواه النفسيّة والعقليّة .

*

وتصبح الكلمة هكذا ، من دون العبارة ، عالم أصداء نفسيّة ، وألحان ، وألوان . وتصبح بعد أن يجبل الشاعر بها في الحبّ والألم ، كائناً غريباً ، يسعُ خلف حدود الحروف ، لاحدود الروعة والفتنة ، واللانهايةَ الجماليّة . هكذا العطر : شيء يدنّس شفة الوردة ، ويمضي أبعد من التوَيْج الملوّن ، حتى شفتيك . وهكذا النور : شيء يدنّس فم القنديل ، وينطلق أبعد من الفم البلّوريّ ، على مدّ عينكَ والنظر . وهكذا اللحن : يدنّس جسد الوتر ، وينطلق على مرمى الأثير ، حتى كلّ مِزْقة من شرايينك ، وكلّ نقطة في عروقكَ من الدّم الخضيب .

*

ولا يُخدعنّ القارىء، ويظنّن أنّ هذا اللون، من الرمزيّة المطبقة. أو أنه نوع من الوصف الذي يعتمد على الخيال فحسب. إنّ هذا الأدب هو من الأدب الواقعيّ، الذي يشمل كلّية الشاعر، وينبع من داخل، من ذاتيّته المنفعلة بالعالم الخارجيّ. وبما أنّه ينبع من الذات، فإنه يتطلّب وعي القارىء، وحضورَه الكليّ، بمجمل شعوره، ومجموع قواه الروحيّة والعقليّة. أضف إلى ذلك أنّه يعتمد على السرعة في التعبير، وعلى السرعة في تغيير الأجواء، وعلى التقاط الأصوات، والأصباغ، والصور، والأفياء، والأنداء، بما يؤثر تأثيراً مباشراً على الحواسّ الخارجيّة، قبل أن ينفذ الى العقل الواعي.

*

وهو يعتمد أيضاً على تحميل الكلمات أكثر مما تحمل، وذلك بغمسها في أصباغ عديدة متقاربة، وبجعلها تعبيراً للاشتراكات الحسيّة التي يحسّها الانسان الشفّاف الروح في صلته بالكون الخارجيّ المادّي. ممّا يؤدّي الى خلق نوعين من العلاقات: نوع بين الاشياء المختلفة الطبيعة والمميّزات، ونوع آخر بين هذه الاشياء وذات المرء. أما بين الاشياء، فيكون ذلك عندما تسكب معنى روحياً مجرّداً، في جسم مادّي. وأما بين الاشياء

وذات المرء ، فيكون ذلك عندما يبعث جسم ما في نفسكَ أثراً آخر يختلف عن طبيعة الشيء المؤثر ، وقد يكون غريباً عنه غرابةً قاطعة . ومَثَل ذلك ، عندما تسمع صوتاً أخضر ، وتشمّ عطراً أحمر ، وتريكَ رائحة ما شخصاً معيّناً ، ويبعث فيكَ منظرُ شفتين رائحةَ الكرز أو طعمَ العنب العاصميّ ، وإلى آخر ما هنالك من العلاقات التي تنصهر في بوتقة النفس والأعصاب ، وتخلق الوحدة بين الكون والانسان .

*

وقانون العلاقات هذا ، هو جزء من مبدإ تدنيس الكلمة . وجرياً على هذا المبدإ أيضاً ، كان لا بدّ من استعمال بعض الكلمات العاميّة الدارجة الرائجة ، عندما تحمل شحنةً موسيقيّة ، وتكون أقرب الى الحياة من اختها الفصيحة المحنّطة ، او عندما تنطوي على تعبير دقيق خاص ، يفرضه عليها الاستعمال ، والبيئة التي وجدت فيها . ولا نخشَيَنْ هذا النوع من التعريب ، ولاسيّما إذا كان مشتقاً من حياتنا اليوميّة الواقعيّة . فالحياة أقوى على فرض الكلمة من القاموس الذي أضحى كمتحف الجماجم والعظام ، أو الذي ألّفه عقل آليّ أتخمه زنى الحرف . فقيمة الكلمة لا تأتي من

كونها مدوّنة في معجم ، ولكن من كونها مستعملة بين الناس لسدّ حاجة من الحاجات . والكلمة كائن حيّ له أعماره : من ولادة ، وشباب ، وشيخوخة . وخير الكلمات ما كان في طور الشباب ، أي الذي هو في مرحلة الاستعمال .

*

ولكي لا يُظنّ بيَ السوء ، أراني هنا مدفوعاً لمواجهة مشكلة العامّية والفصحى ، التي يثيرها في هذه الأيّام كثيرون من لاأتكي الحرف . وإنني لأقف مذهولاً أمام أولئك الذين تنكّبوا معاولهم لهدم صرح الفُصحى ، مبشّرين بفرض العامّية مكانها ، بالرغم من كون العامّية مجموعة من اللهجات المتنافرة التي تختلف اختلافاً بيّنا ، ليس فقط بين البلد والبلد ، والمنطقة والمنطقة ، والقرية والقرية ؛ بل بين الحَيّ والحيّ ، والبيت والبيت ، والعائلة والعائلة ؛ ورغم أنّها بنت الفوضى ، فلا ترتكز إلى قانون ، أو إلى ضابط لفظيّ أو كتابيّ . ومهما كلّف الأمر فإنني أفضح من هؤلاء الدُعاة الغُلاة ، مآربهم الشخصيّة ، وتحيّزهم لعنصريّة أو مذهبيّة سطحيّةٍ هزيلة ، يجرّهم إليهـــا الأجنبيّ المفكِك ، أو الهوى الدميم ، أو الهوَسُ الجارف ،

أو قحط الشخصيّة . وإنني أتجه لهؤلاء فأقول : العَرَب أمّة واحدة ، تجمعهم لغةٌ واحدة ، هي التي تعطيهم مركزهم في أحداق الشمس . وإنني أميّز هنا بين شيئين يخلط بينهما أغلب المناظرين في هذا الموضوع : بين ضعف اللغة ذاتها ، وبين ضعف المالكين لهذه اللغة . اما العربيّة الفصحى فقد برهنت على انها ليست ضعيفة ، قاصرة عن أيّ شيء ؛ فقد استوعبت الفلسفات الكبيرة ، والعلوم الواسعة ، والقوانين النافذة الدقيقة ، والآداب على اختلاف نزعاتها ، وهي وحدها تملك عناصر حضاريّة متينة ذات امتداد وبقاء ، وطواعيةً قابلة لكل خلق وإبداع ، وشمولاً أين منه انكماش العامّية على ذاتها ، وضيقها الناضب المجال . فالضعفاء القاصرون المقصّرون ، هم إذن مالكو العربيّة الذين يجارون ما بلغ إليه فهم الناس للعربيّة من تقهقر وانحطاط ، في حقبات الاحتلال والانتداب ، التي مرت بها هذه البلاد . ولا يسعني هنا سوى اتّهام المدرسة ، ولاسيّما مدرسة الاجنبيّ التي ساهمت في إضعاف اللغة ، وجعلتها دون الغربيـة مرتبة وشأناً ، وأجبرت الكاتب ان ينزل الى مستوى الناس في تعبيرهم ، لئلا يُتّهم بالبرجعاجيّة والرجعيّة والتقهقر .

*

وأراني محمولاً على الجهر بأنني انتهجتُ في «نيسان» أسلوباً هيّناً ليّناً قريب المنال ، متوخّياً العبارة السهلة القريبة للاستعمال العامّي . كما انني حافظت خلف الرداء المزوّق على كثير من العناصر الفكريّة الفلسفيّة . إذ إنني من الذين يعتقدون بأن الفلسفة المجرّدة شيء تافه ؛ لأن هنالك شيئان هما الاصل في الحيـاة : العلوم التي تكشف عن أسرار الطبيعة فتضعها في خدمة الانسان؛ والادب او والفنون جميعها التي تعبّر عن صلة الانسان بالوجود . امّـا الفلسفة المستقلّة عن الفنون ، وعن الحياة كما يعيشها الانسان ، فإنها تبقى نوعاً من الهراء، أو الدروس الجافّة الجامدة ، التي يقرأها بين علفتين ، بعض المهرّجين على طلاّب الجامعات . لذلك لا يمكن أن تكون الفلسفة مفيدة إلا إذا انصهرت في الفن ، لتكون تعبيراً حيّاً عن الكائن الحيّ ، في علاقته بالكون .

*

والسؤال الأخير الذي يستدير على شفتي : هل يمكن أن يكون الأدب الحقيقي أداة للشر ؟ إنّ الأدب عندما يفقد عناصره الخيّرة ، ويحمل في ثناياه عناصر الشر ، يبطل أن يكون أدبا . ومتى كانت الغاية من الأدب خلق روح جميل ، وبثّ خيط من الجمـال في عباءة

الأرض ، وسقسقة لحن كالدوج يسمو بالنفس إلى عالم أحسن في دنيا الناس ، وتخضيب شفة بلون ، ودفق الشمس على صدر أنثى تقول للنور كن ، فيكون وعلى نحره ريشة أو إزميل ، أجل متى كانت هكذا غاية الأدب ، فأجمل به من خير يدفق على السفوح ، وأجمل بالسحر والطيب والحبّ والحنان تولد في روع الكائنات ، كما يولد الربيع في َخلد الغصن ، وفي منقر العصفور .

*

وفي َخلد الكون كانت نَيْسان ، يومَ تألمتُ ، وجرّح الشوكُ أصابعي ، وأكلَت الشجرة ، والنجمة ، والحجر ، والريشة ، والورقة شيئاً من فؤادي ومن عروقي ؛ ويوم سفحتُ شفتيّ على كلّ درب ، منهلاً لكلّ فراشة ، وكلّ نحلة ، وكلّ عابر سبيل ؛ ويومَ كنتُ أطفىء عينيّ ، لأطعمهما لحفنة تراب ، أو أشعلهما مثل شمعتين عند باب رابية زانية ، أو أهرق في حدقتيهما كل لون أخضر ، لكي أغمس فيه ريشتي الخضراء . وإنها لتبقى في حياتي شعاعاً يذهّب جفنيّ ، وحبوباً من لآلىء الطلّ تنزل مع الفجر على جبيني ، وحلماً عسجدياً أنقله في كل درب مثل الفراشة الطروب ، وتذكاراً حفرته بيدي في جانب القلب على لوحة من صنوبر ، وفكرةً

يثقل الصدر بها كما تثقل في السنبلة جواهر القمح الاصفر، وكما تثقل في العريشة المواسم العناقيد . وغداً متى أفاق الناس على خبر يملأ عيونهم ، ورحلَ الرعيان مع القطيع عبر أقاليم العشب ، وخلع الشجر ورقه ليكتسي ورقاً أجمل ، واكتظّت جماعات النحل حول اشجار الورد والياسمين ، غداً ، وكما تبقى رائحــة النبيذ في الخابية ، وكما يبقى لون الشمس على جناح طائر ، سيبقى على شفتي اسم جميلٌ ابيض ، هو اسم نَيْسان .

نزار قباني

يصدر تباعاً للمؤلف

- الفقراء .
- الشعب (تمثيلية) .
- رابحة العبدة (تمثيلية) .
- قلم حمرة .

اغلقي الشباك

اغلقي الشبّاك ، انبحّ صوت الريح ، اغلقي الشباك .

وصرّ ضلع الغاب ، اغلقي الشباك ، وصرّ ضلع الغاب .

وشهق السراج ، وصرّ ضلع الغاب ، وشهق السراج .

وملأ الثلج عينيكِ ، وشهق السراج ، وملأ الثلج عينيكِ .

وارتجف خشب السرير ، وملأ الثلج عينيكِ ، وارتجف خشب السرير .

وانطفأ السراج ، وارتجف خشب السرير ، وانطفأ السراج .

اغلقي الشبّاك ، انطفأ السراج ، اغلقي الشباك .

البرد

صرخَتْ صقالة العريش : في عروقي البرد ، في عروقي البرد ؛ في عروقي البرد ، وسعلت صقالة العريش .

وارتجفت مثل فقـير ، ما عنده نار ، ما عنده نار ؛ ما عنده نار ، وسكتت مثل فقير .

وبكت طيلة الشتاء ، على شعرها الطويل ، على شعرها الطويل ؛ على شعرها الطويل ، وقرَّت طيلة الشتاء .

وشعرت بوخز الثلج ، في جسمها العليـــل ، في جسمها العليل ؛ في جسمها العليل ، وارتعشت لوخز الثلج .

وتطلعت نحو السماء ، مسلولةَ العينين ، مسلولة العينين ؛ مسلولة العينين ، وجدَّفت على السماء .

كلمات

كان غصن عار يستحمّ في الماء مرتجفاً ، فتكلمه الساقية بهذه الكلمات :

« أخرج إلى الضفّة وارتد ثوبكَ لئلاّ يقلص الصقيع شفتيك.

وصُبّ عطراً على ساقك .

وانظر في عينيّ ما أجمل عينيك .

وإياك أن تنام في ساقيةٍ غيري ، فإنني أحبّك .

فغداً متى شعرتُ بلحمكَ على صدري ، سأغنّي لـــك أغنيةً بأنّ جسدك أحلى جسد في الجنينة . »

فخرج الغصن من الماء مرتجفاً ، ومشى على الضفّة صامتاً .

فلاح

فلاحةٌ أنتِ ، وأنا فلاح ،

نزرع الرياح ، ونشكُ في الارض الفلَك ،

ونغمد الأسافين في البطاح .

ونشتري الملوك المغطرسين ،

ونصبُ في تيجانهم ونجرع الراح ،

وعلى أسرّتهم نطعم نعاجنا الكلأ ؛

ونجعلهم على أبوابنا خادمين ،

ونزرع الرياح ، ونشكُ في الحقل الفلك .

الصنوبرة

خلعت صنوبرة رداءها ، وبدّدت شعرها ، وبقيت تعيش تحت العاصفة والزمهرير والمطر والثلج ، بعد أن أبعدت عنها أولادها ، ليكبروا عراة في غابة الصخور .

ولقد أعطت نهدها للأرض . وعندما جاء الشتاء ليرضع من صدرها جمعت فمها على شفتيه . فشعرت بأنّ جسداً ينام مع جسدها ، فلفّته بذراعيها ، وأطبقت جفونها على نداء الربيع . وبقي رجلُها يعصرها ، ويقبّلها حول عنقها .

وبعد أن انقضى من عمرها ألف عام ، ألقت شعرها على عينيها الملوّثين بمواسم الأوراق . عند ذلك شعرت بالعُري ؛ فارتجف جسدها . أما نهدها فقد كان كإبريق النبيذ المعتّق ، متروكاً تحت الثلج ، ويندلق الدم على بابه .

أغنية

يا بنات القرية ، يا بنات القرية ، سأعطي أحلاكنّ فسطاني ، وسأخرج في الليل عارية . وإذا رآني القمر عن شبّاكه ، فإني أنشر شَعري حول جسدي ، وأختفي خلف جُب سنديان .

يا عرائس النهر ، يا عرائس النهر ، سأخلع لاحلاكنّ خواتمي وعقدي ، وسأمضي على الضفّة عارية ، فقد احبّني حبيبي عارية . وإذا رآني أحد الرعيان ، فإني أركض إلى المطحنة ، وأختبي خلف دولابها ، فتأتي الفراشات وتقف خلسة على صدري المرتجف .

يا بنات الغابة ، يا بنات الغابة ، سأهب احلاكنّ صندلي الاخضر ، وأشرد بين عمدان الصنوبر حافية . وإذا رآني الناطور الاسمر العينين ، فإني أتسلق الى شجرة ، وأختبي فيها ، فتمدّ الاغصان أصابعها الى لحمي .

يا عرائس الريف ، يا عرائس الريف ، سأهدي احلاكنّ شالي المدعوك ، وسأدور تحت الاشجار عارية ، فيأتي حبيبي، وينثر الازهار على شَعري ، ويغمرني بين ذراعيه .

خاتم أخضر

خاتمكِ كالمقلة الخضراء، وكالضحكة الملمومة على الشفة العذراء .

يا للغدير المحبوك باللازورد ! يا للغدير المحبوك باللازورد !

ومن نهد صبيّة حصّه الأخضر ، ومن خصر شجرة شربين .

وفيه غمست ريشها الحساسين .

وبرْعَمَ الرند والحبق ، فغمرتْ إصبعَكِ غمارُ الورق .

وفي الطبعةِ ، دفنتُ شفتي ،

فبرعَمَ اللازورد ، وظلّ يشهق الورق ،

واخضرّ صوت الحساسين .

الفسطان

من فرج نجمة ، صنعتُ لكِ الفسطان .

ومن صدر حسّون قطّفت خيطانه ، ومن جدائل الشلال .

وركعتُ عند وردة بيضاء ، أنثر أكمامها ، وأجمع أوراقها واحدة واحدة ، تاركاً كوّة على الخصر ، وكوّتين على الصدر ، ونافذة وكوّة وكوّتين ، حتى انتهى الفسطان .

واشتهيتُ أن أخيط لكِ كل فجر فسطانا من ألوان الورود ، وألوان الدروب . ثمّ نحمله في المساء على زنودنا ونعطيه لبنات الفقراء .

وركعتُ عند وردة ، وخطت لكِ فسطانا ، وجعلت من أعلاه إلى وسطه أزراراً حمراء .

العليقة

سألت نَيْسان أُمَّها : ما الذي على صدري ، يشبه كوزَيْ النبيذ ، او كدسَيْ الكرز . فضحكت أُمّها وقالت لست أدري .

فاحتارت نَيْسان ، وأخذت تشعر بأن نهديها ككيسين من الخواتم ، او كفرخَيْ يمام ينفران من القميص .

ومضت إلى الدكان ، واشترت حَب القنّب ، وعادت تفرغه على يدها ، وتقدّمه لهما ، فلا يأكلان .

فأخذت تبكي . ودغشت إلى العليقة ، وقطفت لهما جبيتين من الكبوش الليلكيّة . فلم ينقدا شيئاً .

فافتكرت أنهما لا يحبان القفص ، وأنهما خائفان . فشبكت عليهما أصابعها ، وحلفت أنها ستُفلتهما ، عندما تمضي أمها إلى السوق ، او لزيارة الجيران .



النهود ذات الزهور الحمراء

لغوغان

ضحكة

ضحكتكِ ملأت شفتيّ طيبا : يا للدّالية الحمراء ، ويا للدرج المهروق عن شبّاكنا الأحمر .

أربعة أباريق نبيذ شربناها معا ، أربعة أباريق ، وعشرة سلال ورد قطّفناها بيدينا .

لها رائحة خشب الغار ، وخشب الصنوبر ، ورائحة النجمة المحترقة .

مهدّلة ، وفيها ألف صينيّة ، وألف شال مقصّب ، وأجمل من حانوت أزهار .

يا سهرتنا التي لا تنتهي ، وبلون فسطانكِ خيطانها الحمراء ، يا سهرتنا التي لا تنتهي .

ومن لحم الأطفال رائحتها ، ومن خشب الغار .

فناجين

يا الفم الأخضر . يا أغنيتي المسكوبة بفناجين القهوة . ويا أجمل من قنديل يفرق شَعره الذهبيّ على جبينه .

يا كانون النار في بيتنا القديم ، ويا طاقتي المرتجفة طيلة فصل الشتاء ، ولم تنطفىء لأنها أكلت من الشفق ، ومن جسد الصيف .

الدم على أفواه الزهور أنتَ نهلته ، وكنتَ مغموساً برائحة القفران المملوءة ، والغابات الرطبة ، وبطعم الروابي التي ضمّت أرضها أجسادَ النحل والفراش .

يا حلم نيْسان . خذ الليل بشفتيك ، واعصره على صدرها ، واتوك منه شريطة على زندي . فغداً متى شعرتَ بالصقيع ، سيخلع النساء فساطينهنّ القرمزيّة ، فيطعمنك من خيطانها .

في سقفي القصب

تنظرين إليّ بقلتيكِ العميقتين ، فتحترق عيناي ، وأشمّ رائحة النور والبخور .

وتصنع عيناكِ سلال القصب ، وآنية الحبق ؛ وتحملان السماء ، وتزرعان البيادر ، عيناكِ .

ما أجملها سراجين معلقين في سقفي القصب ، وشباكين مُجرا بالخشب العطريّ .

يا للضحكتين من الفضّة . وترويان على الدرب قصّة شال خبّطته أصابعكِ بأوراق الورد .

واشتهيتُ أن تكونا قطعتين في حجر ، فأضعها فوق سريري ، ونسهر ونسمر معاً .

عيناكِ شمعتان في كنيسة ، وأغنيتان في خمارة ، وكأنها ملطختان بالنبيذ المعتّق .

المحرمة

من صدري نسيج المحرمة ، لا تدعكيها .

لا تدعكيها ، فنملؤها باللوز ، ودموع القمر ،

ونقطف فيها القمر .

ومن خيوطها نحبكُ أحلام بنات الغَجَر .

وهي دفتري ومفكرتي ، وفيها رائحة شفتيكِ .

وهي غذائي أيّام الثلج والمطر .

وتأكل من حُصَل العنّاب بين نهديكِ .

خبّئيها بين نهديكِ . عند الشبابيك الحمر ، في فسطانكِ المدمّى بالقمر .

وفيها القمر ، وفيها أريج نهديكِ .

الدرب

بأيّ شيء سكرتْ دربنا . فهي أغنى بالحسن من رِيَش الفنّانين . ذلك أنّ للشمس فيها مقاصيرُ مقاصير ، وللزهر غُرَف غرف ، وللنحل مسالكُ قصيرة إلى الموائد التي لا ترى مثلها العين .

ودربنا على خطوتين من السماء ، لا يكمد لها وجه ، ولا يخفق لها قلب من البعد أو الفراق . لانّ للزرقة فيها ألف جرّة مدلوقة ، وللون جوارير من ألف صباغ وصباغ .

ويكفي أنها مفترّة الجبين . فلا تفكر بالغد ، ولا تنوء تحت همّ أو غم ؛ وقلبها كالسوار ، أو كقلب الفراشة العذراء . وكلما اقتربت من بيتنا ، انبلج ثغرها عن ضحكة البلور .

وهي مريعة الخاطر ، عفويّة التعبير . وكريمة الراحتين تعطي بلا حساب . ولا تمضي ساعة إلاّ وعلى لسانها رسالة أو زيارة أو سؤال . وتضيع طول الربيع في حفلة حمراء ، أو في مهرجان .

سرير

يا نجّار ، نجّر خشب الورد ، نجّر خشب الورد يا نجّار .
وجمّع الدرر ،
واقطف الهلال ،
واعقد الشلال ،
ونجّر الاعصار ، يا نجار .

نجّر خشب الغار يا نجار ، نجّر خشب الغار .
وقطّع نجمة ،
ومسمّر نجمة ،
وكوّم قربك ألف نجمة ،
واسكب عليها دَوْرق النار ، يا نجّار .

أتعبتَ الدهر يا نجّار ، سرير من تصنع ؟
– سرير نَيْسان .
– يا نجّار ، نجّر خشب الورد ، نجّر خشب الغار ، يا نجّار .

زلغوطة

صببتُ قبلتين في يدِي ، وقدَّمتهما لكَ ، فشربتَ في كفّي كما يشرب الغزال بطاسة اللجين .

وعندما سال الحُبُّ في دمكَ قلتَ لي : شفتكِ أحلى من سوار الذهب ، ولسانكِ طبعة خاتم يظلّ أثرها على زندي .

وكان في فمي زلغوطة خضراء ، حملها الديك على السلالم ، ونقلها للروابي الغافية ، فأفاقت وطلتْ أعتابها بالزعفران .

وبعتكَ قلبي بقبلتين . لانّ ثغركَ ملطخ بالسهر ، ولسانكَ مصنوع من القرميد المحترق . ولانّ الشفق يسيل في عينيك .

الغصن

من كساكَ يا غصنُ بالورق ، يا صالة العصفور ؛ من شقّ على خصركَ عباء النور .

رُح أبا غصن ، بينما أمّكَ تزني ، واغسل جبينكَ بالضوء ، واخلع إزاركَ في الشارع المعدود للقمر .

أحلى من أصابعي أنتَ ، تمنيتُ ثوبكَ لعروستي نَيْسان ، يا خِلعة الارجوان ؛ وأنتَ أحلى من القمر .

وقال الغصن إنه سيزني صغيراً كأمّه ، ويفتح بابه للطير والنحل والفراش ، فيغويها بأساور اللازورد واللجين .

فقالت له أمّه : أريد أن ألقّنكَ الحياة : فعندما تشعر بالجمال ، لوّن أصابعك ، وضمّخ بالعطر شَعركَ وشفتيك .

البساط

شهرين قضينا نحوكُ البساط ، بجناح فراشة ، وجناح ، وجناح . ولكن حرام ، لن نقتل الفراشات . بل سنعمّر لها ، عندما تحتضر ، قبوراً في حديقتنا الخضراء . وبقمر زنبق ، وجرس آس ، شهرين قضينا نحوك البساط .

وبأوراق عريشتنا ، وبشفاه قنديلنا ، وبخيطان الفجر شهرين كنا نشتغل ، وبزهورنا الكحليّة الاعناق .

وما ظلّ عندنا أزرار . فقد قطفناها ، وامتلأت جوانب كوخنا بسلال القصب ، وكنتُ أصوّر عليه شفتيكِ ، وشَعركِ ، وشالكِ المتروك على طاقة العرزال .

وسنبقيهِ في غرفتنا تذكاراً ، بعض شهور . ومتى رأينا فقيراً ، نناديه : تعال يا أخي ، وخذ البساط ، وافرشه في قرنة الكوخ .

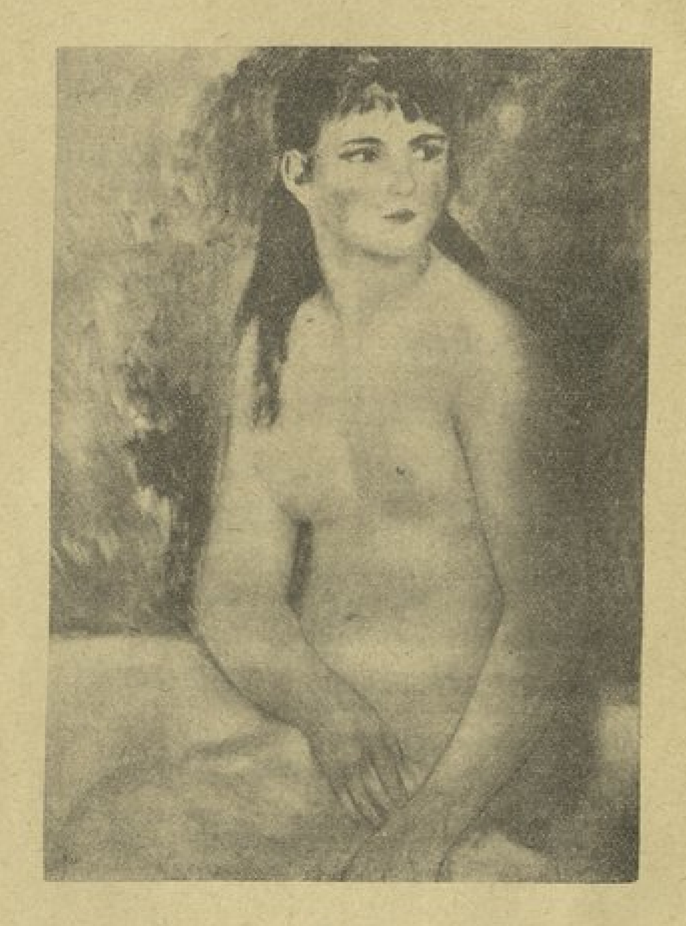
برنيطة

ذهبت نَيْسان إلى نحّات ، وقالت اصنع لي برنيطةً حمراء . فقال لها انتظري أن يحترق الحجر في غرفتي ، وأن أغمس أزاميلي بدم نجمة عارية .

فمضت إلى الخيّاطة وقالت لها : اصنعي لي أيتها الخياطة برنيطة بلون شفتي ، وإنني اقبّلكِ على عنقكِ وتحت نهدكِ الاهوج . فاجابتها بأن تنتظر حتى يسيل الخمر على أصابعها .

فقصدت بائع الزهر وأوصته أن يفصّل لها برنيطة بزرّين من المخمل . فطلب منها قفيراً من النحل ، ودملجين . ودملجين .

فعادت إليّ وقالت : حبّك لي برنيطة بلون شفتي ، وإنني أحبّكَ ، وأعطيكَ خصلة من شعري . فحبّكتها لها بدم شفتيّ الاثنتين .



امرأة

لرينوار

البرتقال

سَرت شهوةُ اللون في جنائن البرتقال . وأخذت الثمار المستديرة تستحمّ في ظلال الأوراق ، وتنسّق مناديلها على جباهها ، وتدير شفاهها للشمس مفكرة بالاصفرار . يا لموسم الغلة والخير ! فكل كعب أحلى من عروس ، وكل غصن أغنى من كنز ومن مملكة .

والموسم مسفوح على كل درب . والغصون تحمل أكثر مما تريد . فهي خزائن نضّدت فيها الشمس سبائك الفضة والذهب والعقيق ، مما لا تجد مثله في خزانة الجوهريّ . وأين نظرتَ فلا تقع عيناكَ إلا على السُرَر من الثمر الصبيغ .

وما بقي شجرة لم تحلم بالقطاف . حتّى الأوراق كان يجري في ظنّها شيء ؛ لأنّها كانت تشعر أن الثمار كأحلامها الذهبيّة ، أو كالبخانق المفروطة على اعناقها النحيلة . وهي تتذكر أن الصبايا يأتين مثل هذه الأيّام ، ويملأن الفروج بالبرتقال .

درج

يظلّ نهدكِ كالنجمة على صدري ، يا للبيدر المنحوت . فعصرتُ السماء بين أصابعي ، ولوّنتُ فمه بالزرقة المندلقة .

غدا ، عندما يمزّق الفجر قميصه ، سآخذكِ معي على درج الشمس ، وأغسل رجليكِ بجرّة نور .

قولي ، ألستِ من زَرَعَ الرُبى في بلادنا ، وجعل لها الجداول قلائد تتدلّى على صدرها .

فالحب سرّ مخبأ في خاطركِ ، كما تبقى الأعشاش في خواطر العصافير .

والفضاء فوق شبّاكنا ، جسرُ مرمرٍ في مقلتيكِ ، وهو يصل بين شبّاكنا والنجوم .

في بيتنا مقعدان ، وبعض صورٍ عتيقة ، ومنضدة من خشب الجوز ؛ وعندي في خزانتي قميص من حرير ، وشريطة لأختي ؛ فسأبيعها كلها لأشتري لكِ سواراً ، وقلم حمرة ، وكتاباً من الشعر .

الكمنجة

زار شاعر صبيّة في الليل ، فوقف في بابها ، وكلمها عن فُسطانها بأنه كوخ العبير ، وعن نهديها بأنهما ناضجان ، وعن شفتيها بأنهما كزورقين محمّلين بالعطر ، وعلم كمنجته أن تحكي ذلك .

وكلمها عن فسطانها بـأنه كوخ العبير ، واقترب منها ، فتراجعت عنه ، فمدّ يده ومزّق فسطانها ؛ فرأى خصرها ، ورأى صدرها ، وكلّ جسدها ، وعلم كمنجته أن تبوح بذلك .

وكلمها عن نهديها بأنهما ناضجان ، فقـــالت له : قطّفهما بأصابعك ، ومرّغ بهما شعرك . ففعل ، وعلم كمنجته أن تقول ذلك .

وكلمها عن شفتيها بأنهما كزورقين محمّلين بالعطر ، فقدّمتهما إليه ، فأطبق عليهما فمه بقيّة الليل . وعلم كمنجته أن تروي ذلك .

وقصّت كمنجته ذلك على قارعة الطريق ، فكان المارّة يقفون به ، ويأخذونها منه ، ويقبّلون له أخشابها .

حديث

في قرنة ليل ، حدّث الورد جاره الياسمين :

– غداً متى جاء تشرين ، أين تشتهي أن تموت ، أفي مزهريّة فضة وذهب ، أو على مخدّة أرجوان ، أو على فرشة حرير وديباج ؟

فارتبك الياسمين ، وطار الكرى من عينيه ، وبقي هاجساً حتّى الفجر ، حيث مدّ أصابعه إلى شفتيْ أخيه النائم ، وأفاقه باكراً ، وقال له :

– قلْ ، ما اسم التي تمر في العشيّ علينا ، صاحبة الأظافر الورديّة ، والفسطان المفتّق على صدره ، والفم المدمّى كأنه علبة الألوان ؟

– إنها نَيْسان . نَيْسان .

فقال الياسمين : أنا على شفتها الحلوة أحبُّ أن أموت ، على شفة نيسان .

فتمتم الورد كأنه في حلم :

– وأنا عند رجليها . عند رجليها الجميلتين .

ثمّ فاحت شفتاه ، وأغمض جفونه الناعسة .

أرجوحة

عشّشَ النحل بعينيكِ ، ضمّخي الدُرف ، عشّش النحل بعينيكِ .

من ابتكرَ هذي الغرُف ، بخشب الندّ ، من صبّ عينيكِ !

لصنع الخمر هذه الأقفاص ، وللسهر . ولابتكار القُبَل .

يا أرجوحة القمر ، بعينيكِ ، يا أرجوحة القمر !

هذه الأقفاص معصرة القُبَل · معصرة القُبَل .

عشّش النحل بعينيكِ وانتشر ، وراء النظر .

لا تغلقي الدُرف ، عشّش النحل بعينيكِ .

خشب التوت

من لا يعرف التوتة في بيت جدّي . فقد حمتها جدّتي من الأولاد ، ومنعتني أن أمدَّ إليها أصابعي ، وكان عمري سنتين . فعندما غابت عن البيت ، حملتني إليها شهوتي الحمراء .

وتعلقتُ بالغصن المحبوك بالجواهر القانية ، وقطّفتُ منه ، فتلوثت يدي بالعطر وبالدم . وعندما أفلتَ مني طرطشَ لي قميصي ، ونثر على وجهي نقطاً كأنها النقش على خدود الابريق .

وصعدتُ إلى الجذع ، وقد غلَّ اللون في عيني ، وسال على لساني مثل القُبَل المعصورة . وصرتُ مصنوعاً من خَشب التوت . وكانت الغصون ضحكاتٍ مؤلمة تتكسّر على صدري .

ولمّا عادت جدّتي ، ورأت شكلي ، أنكرتني . فمنعت عنّي اللعب والطعام ، وخفرت حول التوتة سياجـــاً من القندول . وبعدها صرتُ أحبُّ شفاه البنات لأنها تشبه ثمار التوتة الحمراء .

سلة عناب

جاء يزورنا نوّار ، فوضع على خدّكِ سلة ورد ، فتّح بعضها ، وبعضها أزرار .

وأتى لعندنا تموز ، تموز الكريم ، فترك على صدركِ سلةَ تفّاح ، وسلةً وسلتين .

ومرّ على بيتنا آب ، فترك على ثغركِ سلة عنّاب ، وظلّ قلبه على العتبة ؛ وعلى الباب ظلّ قلبه .

وزارنا أيلول ، وأودع على صدركِ سلتَيْ عناقيد ، مثل حبوب الياقوت .

لقد جاءت الشهور تحمل إليكِ السلال ؛ ثمّ راحت ، وظلت عندنا السلال .

مرحبا

عندنا شجرة ورد مثل امرأة تضع أقلام الحمرة على شفتيها ؛ وسأنثر أوراقها على قدميكِ .

فإن ثغركِ كعلبة العاج ، وأروع من شبّاك أحمر في القرية .

وإنّ نهدكِ كالرابية الثقيلة ، وذراعكِ مجذاف أخضر فيه رائحة البحر ، وساقكِ أجمل من لحن على قصبة بلادي .

وإنّ عينيكِ تشردان على الدرب قائلتين مرحباً مرحباً للعابرين .

وما عندنا دُرر مثل عينيكِ .

أعراس النحل

في عينيكِ رائحة الليالي المقمرة ، وموسيقى ألف حفلة راقصة .

وفيهما مدن كثيرة ، وحدائق معلقة ، وقباب مثل أقواس النصر .

ودروب من نور ، وهوادج محمّلة بالورد .

يا موسمي الغنيّ بأعراس النحل ، وموسمي المتعب بالعناقيد .
ويا شموع العيد في أكواخ جيراننا الفقراء .

ويا مشوارنا مع أسراب الفراش ، على دروب قريتنا ؛
ويا قيلولتنا تحت أشجار الصفصاف المسدلة الشعور .

وفيها قصّة نهدين غجريّين . وكلما رأيتُهما فكرتُ بغرفة ومقعد وقنديل مبحوح .

اللقاح

كانت وردة تُحِبُّ الأرجل المغموسة باللقاح .

فيظلّ على أصابعها جروح يقطر منها الدم الأخضر .

وتظلّ تشرّع أبوابها للنور ، وتزيّن جدرانها بالحرير والسجاد المخرّم .

وتدلق العطر على طنافسها ، وتنشر على نوافذها ألف محرمة من أرجوان .

ولكنّها كانت شقيّة لأنّ الشر على شفاهها الرخاميّة .

ولكي تبرأ من إثمها ، فقد أحبّت التراب ، وأعطته كنزتها الحمراء ، وتاجها المقصّب .

ولكن بقي الشرّ على شفاهها .

نهد

عندما جاء الصيف ، وطلعت الشمس ، قلتِ لي خذ كوباً واملأه من الضياء ، واسقِ منه نهدي ، ولتشرب منه شفتاك ، فيخضرّ نهدي ، وتخضرّ شفتاك ، ونتّحد بذلك إلى الأبد .

وعندما دعكنا عناقيدنا على المعصرة ، بعد أن رحل تشرين من الكرم ، قلتِ لي إصنع بيديكَ إبريقاً من التراب ، واقتل الفراشات التي تمر ، ولوّنه بدمها ، ثم أترعه بالنبيذ ، وأفرغ منه على نهدي ، وأفرغ منه على فمك ، فنتّحد بذلك إلى الأبد .

وعندما هطل المطر ، وكسا الثلج شبّاكنا ، وسدّ بابنا ، قلتِ لي خذ راحةً من الصقيع ، وامرغ بها نهدي ، وامرغ بها شفتيك ، فيرتجف جسدانا ، ونتّحد بذلك إلى الأبد .



المعبودة الخالدة

رودان

وعندما مرّ الربيع على بستاننا ، صنعتُ حبلًا من النرجس الأصفر ، وحملته إليكِ ، فأومأتِ إليّ أن اعقدْه حول نهدي، واربطه خلف عنقكَ ، وأطبق فمكَ على صدري ، فنتّحد بذلك إلى الأبد .

ولما عبرت الفصول ، كنا متحدَين مع الشمس والتراب والماء، وكان يجري في عروقنا دم الزهور .

قوس قزح

يا شريطة نَيْسان المنشورة ، ويا سوارها المضرّج ، ويا حلمها الممزّق على دروب قريتنا .

لقد اشتهت نَيْسان أن تلفّ بك طفلها ، يا أُرجوحتها المنصوبة بين لجّة ثلج ولجّة ضباب .

أنتَ أجمل تعبير عنها ، تحمل السماء وبراعم القمح في قلبكَ الفارغ . وكأنكَ من ابتكار يديها الجميلتين .

سأشرد مع الصبح حافيا ، فأجمعكَ على ذراعيّ ، وأعقدكَ حول بيتها ذي النوافذ الصفراء الموَجعَة .

يا حـــامل أجمل شفة لأجمل امرأة . لقد اشتهيتُ أن أجمعك في شفتي مع لجّة ثلج ولجّة ضباب .

عش بلبل

– أتشتري خاتمي ؟
– أشتريه بخليج ورابية وجدول .
– هذا قليل . هذا قليل .

– وسواري ، أتشتريه ؟
– بموسم زهر ، وموسم ثمرٍ وسنابل .
– إنكَ بخيل . إنكَ بخيل .

– وماذا تدفع بشالي ؟
– عشّ بلبل ، وأربعَ سنديانات ، وبيدرين . وبيدرين .
– غيركَ يدفع أكثر .

– ولا أُعطي لابن الملكِ فسطاني !
– لعلّ قلبكِ قارورة الطيب ؟
– ولا أبدّلُ القمر بصندلي .

شلال

يدكِ صلاة مشلوحة بباب السماء ؛ وأجمل من كلمتين في طاقتنا .

ولون مقطوف من جسد الشلال .

ونداء مسدول على درب فسطان ، وعبارة من عبارات الحساسين المحبّرة الريش .

إنها حكاية الحصب عاشت مع الأزرار ، ويرويها لم القطّاف .

يا للشلال الذي لا ينقطع من النجوم ، على الكوّة الخضراء .

مَنْ قال إنها تبيع التلال . مَنْ قال عنها تبيع التلال . مِنْ أحلامها التلال ، والقمر . والقمر .

زباح

عندما رأيتكِ ملأ الصمتُ عينيّ . وانهمر على شفتي ألفُ شلال فضّي ، وسلالٌ قصبيّة كثيرة .

ولقد كانت سماء الأصيل صغيرة فوق صدركِ ، كورقة ورد متروكة في قعر كوب رخاميّ .

وكانت ساقكِ أجمل من خبر . أجمل من خبر .

وغلّت ضلوعي بالصحو، ولم يبق دربٌ و زبّاح إلا جرت في حنجرتي . ولم يبق فم الا وهو عنّي سؤال .

ورحتُ أجمع في قميصي التلال ،

وأوقد الشموع في الدروب ، وفي التلال ، وفي قميصي المبتكَر .

شَعر

أعطني شَعركِ ، فأغمره في ترابنا ، وأزرع عليه زنبقا . يا للموقد الأسود الذي حرقتُ فيه عينيّ وشفتي .

مَنْ صنعَه . إزميل سكيّر نحته من ضلوع الغار . إزميل سكيّر لا يؤمن بالحجر .

وفيه رائحة الصفصاف ، ويتدلّى فوق عينيكِ كالأغصان على ضفة النهر . ويملأني لونه بالجوع والعري .

وعندما تمشطينه تغمر عينيّ مواسم العاج ، وأجد فيه سريري الخشبيّ ، والشموع التي تفرغ الحبر على صدري .

وأجد فيه لياليّ التي عشتها في جذور الدوالي ، وفي جذوع الغار والصنوبر ، وفي عيدان الصفصاف الأسود .

العاشقة

دعا جُبّ وردٍ طرداً من النحل إلى مائدته ؛ فجاؤوا وعلى رؤوسهم تيجان صفراء، وفي أرجلهم صنادل ملوّنة. فاستُقبلوا في غرف حمراء، مدلوق فيها العطر ، وفي بَهْو أخضر عمّر حجارته الربيع .

بعد وقت عزموا على العودة إلى القفير ، فحملوا سلالهم ، وداروا قليلًا في أروقة القصر ، ورجعوا إلى خليّتهم ؛ ما عدا واحدة لقّبها أخواتها بالعاشقة . فإنها لم تعد ، وحبست نفسها في غرفة حتّى ماتت ؛ فوقعت جثتها على الثرى .

لم يعمل لها أخواتها جنّازاً ؛ غير أنّ مباخر كانت تهرق الطيب في الحي . وفي مساء اليوم الثاني اصفرّت أوراق الغرفة التي ماتت فيها ، وسقطت فوق جثتها كأكفان لها . فجاءت الريح وحملتها إلى قبر صغير ، ووضعت فوقها التراب .

وامتدّت جذور الوردة الأمّ إلى القبر ، فتغذّت من الجثة ؛ فجرى دم جديد في عروقها . وعندما علقت أجراساً في قناطرها ، وعمّرت غرفاً جميلة ، عادت فأرسلت خدمها لتدعو جماعة النحل إلى وليمة على مائدتها ؛ لأنها شعرت بأواصر المحبّة تربط بينها .

غرفة

غرفةٌ لنَيْسان ، باب خليع وشبّاك . وشبّاك .

على مقعدها رائحة نهد ، وفي أرضها شاعر ملطخ الشفتين ، دلق على صدره جرّة الخمر ، وعلى بساطها ساق مدمنة ، ملوّثة بدم ابنة الكرم ، وفيها كوبان معصوران ، صُنعا من شفتيّ وشفتيكِ ، ومن شفاه دوالينا .

غرفة لنَيْسان ، لشالها ، لقميصها الممزّق .

تحت شبّاكها الأخضر سراج يأكل تواريخه ؛ وهي عمر ليلة . وكانت في تاريخ الغُرف ، زقاق شعرٍ وسحر ، وقرنة شاعر مدمن مع سكّيرة . يا لحانة الأسرار ! وحتى درجها رائحة الخمر .

غرفة لنَيْسان ، وهي تذكار شفتِي وشفتِها .

السهام المذهبة

سألت نَيْسان شجرة تفّاح غلّت حتى نزل الثمر من عينيها : من الصائغ الذي صاغ لكِ أساوراً وعقداناً وقروطاً كأنّها الدرّ والياقوت ، وجلاكِ كالعروس التي تسحر القلوب ، وجعل على عينيكِ ألف برقع أخضر .

فقالت التفّاحة : كانت أُمي بيّاعة عِطور ، فأغوت رجلاً وأجبرته أن يصوغ لي حلاي . وكان كلما هاجعني مرّة يضع عقداً في عنقي ، مردداً هذه الكلمات : جسدكِ أثمن من خزينة الملك ، وإنني أعبدكِ .

فقالت نَيْسان : سألتكِ بعينيكِ يا أُختي الشجرة ، هل كان حُبّ هذا الرجل يورّد خدودكِ ، ويشعل شفتيكِ . أخبريني ، فإنني أحترق ، وأحسّ بأنّ سُلالات النحل تجمّعت في نهدي ، وبأنّ نهدي مثل شمعة عارية .

فأجابت الشجرة : إثمي في عنقي ، وفروعي مجامر تشتعل على صدري . عندما أحببتُ يا أُختي امتلأ قلبي بالأوراق والأزهار والأثمار . وأخذ البستانيّ يروي قصصاً ملوّنة عنّي ، قائلاً بأنّ عيوني كجعبة السهام المذّهبة .



ديانا

القرن السادس عشر

الشفة الحبلى

شفتكِ طاقة يطلّ منها القمر ، ويسكب دُرره على شَعري .

وما أكفرها . لأنها أقسى من الحجر ، ولأنها مثل كوب الجمان المملوء بالنار .

وهي كطبعة خاتم مشقر ، وكنجمة حُبلى بالنور ، تترك الدم على عنقي .

وقد اشتهيتُ أن أصنع منها زنانير أرجوانيّة لجيراننا الفراشات ، وأن أغمس فيها ريشتي وأصابعي .

وهي كطاولة الياقوت المسفوحة على دَرَجنا ؛ ومثل كيلوت أحمر خلعته الشمس ، وأشعلته على ضفّة مركبها قبل أن تغيب .

البيادر

هاتِ يدكِ ، فنحمل ضفّة النهر على زنودنا ، بل النهر كله نطويه على خصورنا ، ونعود إلى قريتنا التي عمّرت بسواعد القمر درجها المعرّى .

المشرّدون في التاريخ كانوا أهلنا ، وبائعات الورد أمهاتنا . فصلّي بأن تبقى أرجلنا حافية .

واملأي بالبيادر أرضنا ، وقولي للمساء أن يلفظ كلمة حُبّ في بابنا .

وأعطني نهدكِ ، وكأس ظلٍّ من غدائر الصنوبرات العتيقة ، فيكونا لي غذاء .

وتعالي نسمّر شفتيكِ على فمي ، فتبقين معي لوناً ، كما يبقى عبير العنب في سلال الكرّامين .

مع العناقيد

نَيْسان تعاليْ إليَّ ، فإن النار على شفتي ، وأربع أو خمس قبلات في النهار تكون طعاماً لكِ .

عندنا عريشة ، هذا كل ما عندنا ، عمل منها أبي قنطرة بأخشاب الحور ؛ وعندما تتدلّى عناقيدهـــا السوداء ، يقول جيراننا بأنّ الزمرّد والعقيق مشقوعان أمام بابنا . عندنا عريشة ، هذا كل ما عندنا ، وإنّها تكون لكِ .

وعندنا حرام أصفر ، قولي ، يكفينا الحرام الأصفر ، فعندما ننام تحت القنطرة ، ينعكس علينا نور الشمس من مآقي العناقيد .

مِن أخشاب الحور صنع أبي القنطرة ، من أخشاب الحور . وما للحور رائحة خشب الصنوبر ، ولكنني أحبّ قشرته البيضاء ، التي ترتعش كجسد صبيّة تغتسل على الجدول ، وأذكر عندما أراه رائحة الفيء والعليق .

واهدأي في جانبي ، لا تمزّقي الحرام ، فما عندنا غيره . وتتركين رأسكِ على زندي ، وأتركُ فمي على فمكِ ، وننام كلانا مع العناقيد .

شبّاك

هذا شبّاككِ يختصر السماء المجتمعة على فمه . وهو كالصبيّ يضحك ويهزج بعينيه الزرقاوين ، ولم يترك منديلاً أو محرمة زرقاء إلا مزّقها ورماها تحت دُرَفه . وكان اللون القاني يدعج بين شفتيه ، منهمراً بغزارة على عتبته .

إنّه زينة حيّنا ، وقد نُجِر خشبه من السنديان العتيق ، ومن جسد القمر . وذاع على شفتيه أسرار كثيرة ، منها أنّ عينيكِ أطيب عطراً من خشب السنديان والصنوبر ، وأجمل من صناديق الورد ، وأنّ يدكِ من روح النهار .

وقد أكلَ من عينيّ ، وادّعى أنه مزار جميل ، تضعين على عتبته مقصّكِ الفضيّ ، وكيس البذار ، وعلبة الألوان التي توشّين بها الحقول والدروب ، فتبسطينها موائد غنيّة للجميع . يا للصيوان المشقوع بألف شفةٍ قرمزيّة ، وبألف محرمة زرقاء .

غداً عندما نفترق ، أخبريه عنّي ، بأنّ فمي من صنوبر وسنديان ، وبأنّ عينيّ جوهرتان علقتهما في عنقكِ الأسمر ؛ وبأنني كنتُ كالصبيّ لا أسمع كلمة أحد ، منزوعاً عنيداً ، أحمل على شفتي السماء ، وأهرق على شبّاككِ القمر .

الشمعة الخاطئة

الشمعة الخاطئة خير من النور ؛ والشجرة العارية خير من الثمرة .

ولم يحن يوم القطاف ، حين تعطي الصبايا شفاهها ، ويقطّف الكرّام الدوالي .

لكنّ شمعتنا عصرت قلبها على كفّها ، وأخذ دمها يسيل بين أصابعها الصفراء .

وكانت تقول في سرّها بأنّها بنت راعٍ ، وزارعة زنبق ، وأنّها وُلدت في الشهر الذي يلقّح النحل فيه الزهور .

وهي كالمجنونة تبصق في كلّ زاويةٍ عبارة نار . ولقد دفنت في صدرها جمرة للأعصر القادمة ، قائلة بأن البحر ، والتلال المذّهبة ، والسماء ذات النجوم المتدلية ، من صنع رجل أعمى . أما هي فمن صنع أصابع تحب .

يا أختي

غداً تنسانا غرفتنا يا أختي نَيْسان . شبّاكها المجنون ، وسقفها الخشب ، وبراديها القصب ، وعلى عتبتها شالكِ الذي يلفق ، وكتاب الشعر على بساطها المزوّق ، غداً تنسانا غرفتنا .

يا أختي نَيْسان، وألف شفةٍ من الليل مقطوفة ، غداً تنساها.

قنديلنا المبحوح ، وثلاث أو أربع فراشاتٍ عاشوا فيها ، وألف قبلة ممرّغة بالزنبق المجروح .

فاتركي الشال المزّق على العتبة يلفق ، فهو لنا تذكار .

والمقعد المبعثر مخدّةً ومخدّةً وحرام ، والصورة التي بروازها سنديان ، والطــاقة التي حلمت أن يبقى عليها النور ، غداً تنسانا غرفتنا يا أختي ، يا أختي نَيْسان .

رسالة

رسالة حبّرتها أصابعي ، يوم أحرقتُ دفتري وأوراقي ، وغمستُ في قلبي ريشتي الخضراء .

إنّها أمل ينذاع في بيتنا : فغداً أزرار الورد تمزّق أكمامها ، وتشقّ صداريها ، وتمدّ ألسنتها بين شفاهها الموجوعة . وغداً تفرّخ في حنجرة ريشتي الكلمات .

ولقد جمعتُ حروفها من المحارم المطرّزة عندنا ، ومن المزهريّة ، ومن علبة التبغ ذات الزنار الذهبيّ ، ومن قناني النبيذ ، ومن دقدقة الأيدي اللطيفة على بابنا ، وشهقة أختي التي تعدو مزلطة وتقول : « أتى لعندنا زوّار ، بعض البنات المعجوقات الشفاه . »

ولن يعرف بها أحد ، غير فتاة لها أصابع معوجّة ، وشفة سمراء . وإنّها كمشة حروف من عطر ، جمعتها من عينيّ ، ومن شفتيّ ، ومن شَعري ، ومن قميصي الحرير .

مطحنة

تعالي ، لقد كان عندنا على النهر مطحنة ، فنجمع حجارتها العتيقة ، ونعمّرها بصخرتين ودولاب .

وندعس في الماء حافيَين . وندعو إلينا الفلاحين والرعاة ، فيسهرون معنا . فالفلاح عندنا يساوي عشرة ملوك ، والراعي ألف كاهن ، والسكّة خير من التيجان ، والشبّابة أحلى من الناقوس .

وينير علينا شمعدان من قصب . وتعطينني شَعركِ فيكون مخدّتي ، وننام وشفتاي على شفتيكِ . وينام معنا فراشتان أو ثلاث ، ويدخل علينا من الطاقة ضوء القمر .

نَيْسان هيّا معي في ضوء القمر . وبساقية من لجين ، وبزنّار زمرّد ، وبحجرين عتيقين ، وبدرج أخضر ، تعالي نعمّر مطحنة .

قنديلي

صَبَغَ شَعره قنديلنا . اذا جئتَ يا دورق النور ، أطعمتكَ قميصي .

غرفتي الصفراء لي ولكَ ولنَيْسان ، وإذا جئت أطعمكَ شفاهي .

لقد خبّرتُ هذا الليل عنكَ ، فاصبغ فمكَ بالنار .

وكان الليل يرتجف ، يا دورق النور ، فاصبغ فمكَ بالنار .

من عيني السمراء نارك ، من عيني السمراء ، يا دورق العطر .

وعمركَ قصّة فقير ، وقصّة كوخنا . وقصّة كوخنا .

وإذا جئتَ أطعمتكَ شفاهي . قنديلي ، في ضلوعكَ النار ، يا دورق العطر ، في ضلوعكَ النار .

أزرار

أيّها القمر ، تعال نلعب عاريَيْن .

تعالَ أفكُّ أزرارَكَ ، ونجمع بشالي الدور .

وتمزّق لي قميصي ، وأجرّح لكَ شفتيك .

وأفكُّ إزارَكَ ، وننام على حجر .

وتجرّح لي قميصي ، وأدمي لكَ شفتيكَ ،

وأدمي لكَ شفتيك .

وتغمر جبيني كما يغمر شَعرُ نَيْسان جبينها وعينيها .

وتجرّح لي قميصي ، وأدمي لكَ شفتيك ،

ونهجع على حجر .



امرأة

لتولوز لوترك

الفراشة

تطلعت فراشة حولهـــا فرأت أنّ جناحيها أكبر من الكون . فعلمت حينئذٍ أنها تضيف إلى الوجود حفنة من الألوان ، وأنها الإلهة التي تجعل الزهور تشعر بوجودها وبجمالها . فتكبّرت وراحت تلعب حول مجاري المياه .

فزجرتها أمّها الطبيعة قائلة : ألا تخجلين من العبث يا زانية ، يا بنت الدروب .

فأجابتها الفراشة : لا يا أمّاه . فإنني عذراء وأحب جميع الكائنات .

فقبّلتها الطبيعة قائلة : أنتِ جميلة لأنكِ غريبة عن أخواتك ، وما لكِ أمل .

وبعد يومين أحبّت الفراشة أن تموت صبيّة . لأنها عرفت بأن السهول الواسعة ، وضفاف الأنهار ، والغابة والمعصرة ، لا تزيد شيئاً على مساحة جناحيها . فاحتملت ذاتها ، وارتمت على شوكة دخلت في صدرها . فانبجسَ دمها وجرى على جناحيها . وقبل أن تموت ، أوصت بشالها لزهرة جميلة ، ثمّ أغمضت عينيها الزرقاوين .

مصيف

– ماذا في صدركِ كالغُرَفِ التي لا تنطفي ؟
– هذا مصيف النهدين في معطفي .

– بل هذي بِرَكُ الرند فاهتكي الوشاح عنها واغرفي .
– بل غُرف مشقوعة بالسّعفِ ، هذي غرف الرند ، هذي غرفي .

– هذي غصون العنبرِ في حيّنا المقمرِ ، فقطفي منها قطفي .
– بل هذي خزانتي الحمراء خبّأتُ فيها تُحَفي .

– وهي سراجي الذي لا ينطفي . وهي مصيفي .
– وهي ظنوني لا تستحي تأكل من مشلحي ومن معطفي .

– وأسراركِ في صدركِ الليلكيّ ، فكشّفي عنها كشفي .
– بل مصيف النهدين في معطفي الذي لا ينطفي .

ريشة

نَيْسان ، قصّة كتبتها أنا وشمعة تحترق ،

ولم ألفّق أخبارها ، لأنها عاشت في صدري .

وما صنعتُ لها عقداً وصدريّة من الأزرار ،

لأنني فقير .

من يشتري ريشتي وشمعتي لأجلب لها قميصاً مطرّزاً ،

وصندلاً مزيّجاً بالنور ؟

لا أحد . ولم يشترِ أحد ورودنا ، فذبلت على الأغصان .

ولقد حسد الناسُ موسمنا .

نداء

عرّتني عيناكَ يا حبيبي ، وقبّلتاني على شَعري ، وبين نهديّ النافرين كصدر الحمامة .

قبّلني يا حبيبي على صدري ، وخذ نهدي بأصابعك ، فانني أشعر أنّ عينيكَ تحترق في عروقي .

واختصر فمي بين شفتيك ، فقد حلمتُ بكَ منذ طفولتي ، ولبستُ من أجلكَ خاتمي الاخضر ، وحَلَقي المدوّر كشفة النجمة .

ومن أجلكَ عطرتُ نهديّ المصنوعين كعلبتَي العاج .

وعندما أردتُ أن آخذ فسطاني ، وأضعه على جسدي ، رأيته يشتعل في عينيك .

بائعة التفاح

نهدي خزانة عنّاب ، مفتوحة الدرفتين على الدرب . نهدي خزانة عنّاب مملوءة ، وأجمل من سحّارة التفّاح .

وعنقي كمطعوم الشجرة ، ويحمل فرجاً من الأثمار . ومن رآني يفتكر أننا جمعنا الموسم في الصناديق .

وشفتي أغنى من مشاتل التفّاح المصبوغ . لأنّ روعة الوجود في شفة امرأة ، فهي مختَصَرُ الكون .

وعيناي كوزان من الرّمان أو تفّاحتان فوق السياج ، أو مزهريّتان ؛ وهما أرقّ من وردة مبحوحة .

وخدّي سحّارة عند بائعة التفّاح . وقد حام عليها النحل ، لأنّ أريجها يفضح ، ويجرح صدور المشترين .

صلاة نيسان

أيّتها الساقية ، عندما ألد طفلاً ، سأحمله إليكِ ، وأغسله بدموعكِ الفضّية . وسأحيك له قميصاً معرّقاً ، وأشمّ رائحة لحمه الطري .

وأتركه على ضفّة مزهرة ، فتحوم حوله فراشة ذات صدرٍ أحمر ؛ وإذا وقع ركضتُ كالمجنونة ، وعصرته على صدري ، وقبّلته في عينيه .

وسأقطع أغصان الصفصاف ، لأصنع له تيجاناً وعقداناً خضراء . ويدرّ نهدي ، فأرضعه عندما يجوع . وأغمر بين نهديّ يده الصغيرة الباردة .

وعندما يكبر سأعلمه أن يكون رجلاً ، فينجّر السكاكين في كوخه ، ويعطيها لإخوته الفقراء . ويشعل العاصفة في كوخنا . وسأمسح بالحقد والكبرياء شفتيه .

سراج الليل

سراجَ الليل ، أيّها الشريد الذي عاش على الدروب مثلي . بوركتَ ، فكأنكَ تحمل شفة نَيْسان المدعوكة بالنور .

كم عمركَ ؟ شهر ؟ هذا أجمل عمر . أجمل عمر .

قلْ ، أتعرف شيئاً عن الذي لطّخ فم شُجيراتنا بالعطر ، وضمّخ سيقان الورود ، وألبسها اللون الأخضر .

مـــا أروع بيتكَ : السياج العتيق فرَشَ القمر بأرضه ألف لؤلؤة .

عندما تمرّ أيها الشريد بباب نَيْسان ، أطفىء قنديلكَ ، وامشِ حافياً ، واترك الليل على السياج .

بوركتَ يا سراج الليل ، فكأنكَ تحمل شفةً مدعوكة بالنور .

البلبل

أيّها البلبل ، يا ابن الغصن الرشيق ، يا حامل وجع الليل في صوتكَ الليلكيّ الأزرق . تكبّر ، تكبّر على الأفنان ، فإنّ ريشكَ من شَعري ، وفي صوتكَ فضّة عينيَّ تَبْسان .

هيّا اذهب إلى نافذتها ، وخذ لها قلبي ، وشفتيّ الاثنتين . وحيّك لها شالا . وحيّك لها شالا .

واجمع ذَهَبَ الشمس ، وصُبّه في عينيها . وصُبّه في عينيها . وذكّرها بوعدها الأخضر .

ثم ارجع كلّ يوم ، وأفرغ الحبر الأصفر على خشب نافذتي . وإذا فعلتَ ، فإنني أكدّس السماء في منقاركَ ، وأقبّل أصابع رجليك .

القبلة

زنّرتُ شفتي بقبلة ، أطبقي عينيكِ عليها ، أطبقي عينيكِ .

وجرى الحبر في بيتنا ، وغلّ الغار ، في بيتنا .

هذا الموسم ، قـّطفي النار متى جعتِ ، قـّطفي النار .

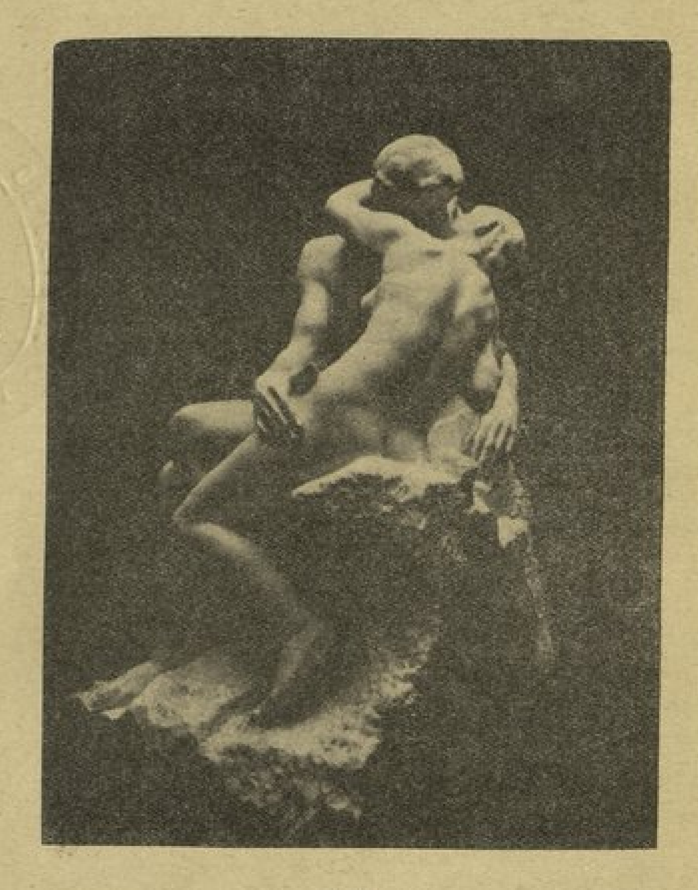
واملأي البيت بالزيت والخمر ، وأشعلي الربى . وأشعلي الربى .

فغداً تحترق السماء ، مع النجمة ، غداً تحترق السماء .

وننطفي مع النجمة ، أطبقي شفتيكِ على فمي .

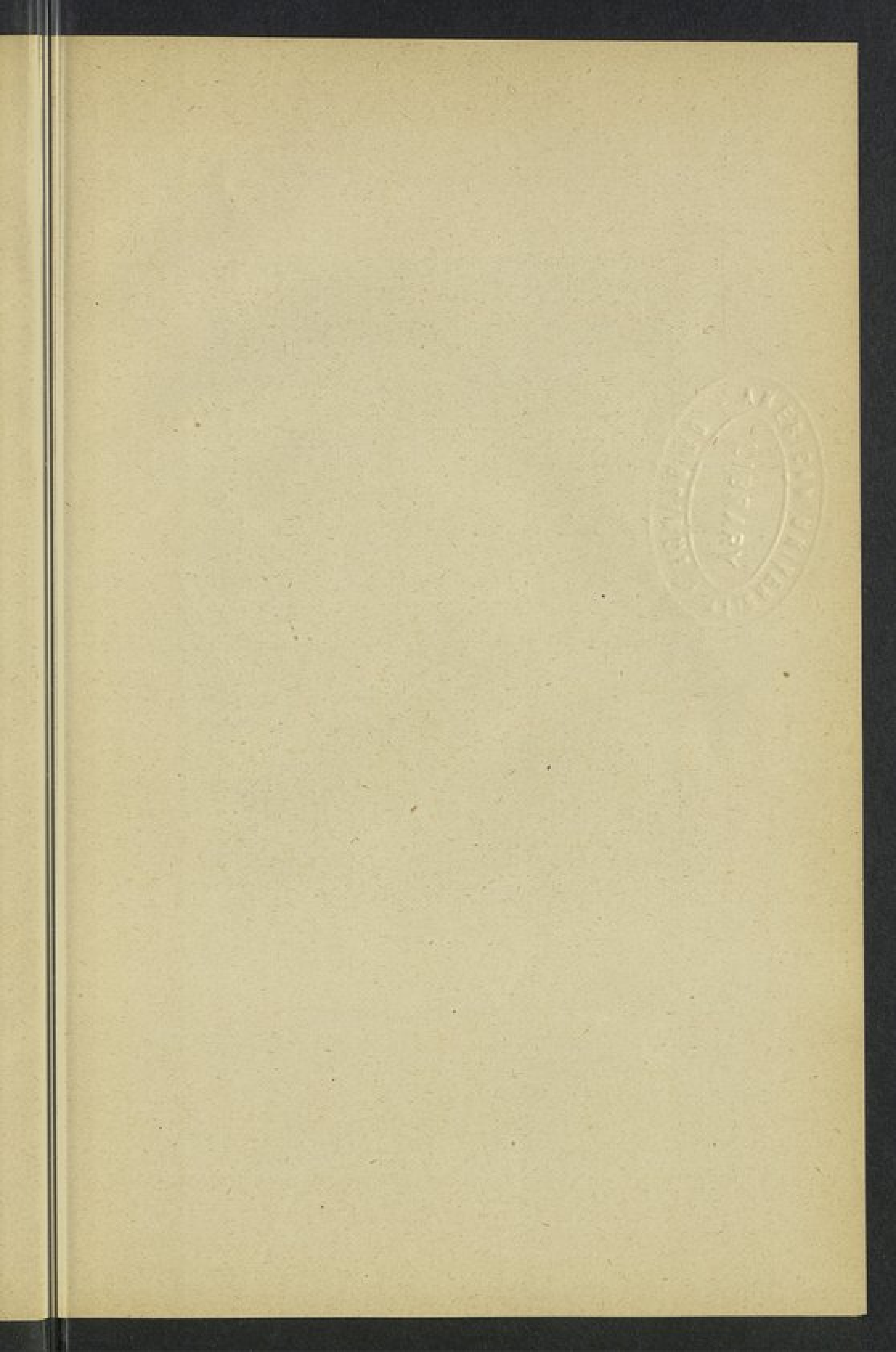
وغداً نقـّطف النار ،

وننطفي .



القبلة

لرودان



نيسان

يا غاباتُ ، يا ليلُ ، يا قمر ، من روحكم نَيْسان .

ومن وردٍ وزنبقٍ ، حجار كوخنا ، ومن جنحان الفراش .
وبليلة سُكْرٍ طاقتنا مزّقت ضلوعها .

ونبقى هكذا على الورد مشلوحين . وبابنا مغلوق ويضحك .
وكلّ ما عندنا كوخنا السكران .

وعمرنا تاريخ ألف نجمة ، على النعش محمولين .

والبارحة وُلدنا في جرّة الكرّامين ، في قراني الغاب ،
وفي منجيرة الراعي ، والبارحة كنّا منذ الأزل مولودين .
وكلّ ما عندنا كوخنا السكران ، وطاقة من وردٍ ومن غار ،
وقلبي وقلب نَيْسان .

يا ليالي السهر ، يا مواسم الثلج ، ويا إخوتي الرعيان ،
مِنْ روحكم نَيْسان .

ديك

أشعلتَ حجارة البيت يا ديك ، وزرعتَ الفجر على الشبابيك .

قل لنَيْسان إنكَ سهران ، يا صاحب التاج ، فقد سكبتَ الارجوان على الباب ، وعلى الدرب ، وعلى شفاه الغاب .

من ثياب المماليك عرفك الأحمر ، ومن هدايا المجوس . وعلى جناحكَ دلقت أمّكَ النار .

يا صاحب التاج والعنق المصبوغ ، من يدَيْ نَيْسان تلاوينك ، من أظافرها الحمراء .

امام بيتنا بلاد كثيرة ، صُفّ لها كلمتين . فالأميرات السمر حلمت بكَ . والملوك أتوا على أقدامهم يزورونكَ مع الصباح ، فافرش دربكَ بالنار يا ديك ، ولوّن الشبابيك .

تينتنا

تسلّط العصفور على تينتنا ، وترك في أغصانها جروحاً مزوّقة ، فأضحت كالمقصورة المعجوقة ، التي تزدحم في نوافذها ثريّات العاج ، وأباريق البلّور ، وخزائن الريش المقلّم .

وأصبح في كلّ قصفةٍ أرغنٌ يهرق النور ، ويكسّر قرب طاقتنا قناني الصباغ . وكانت العصافير تمدّ أعناقها ، وتنقر الكيزان في خصورها ، فتنطلي مناقيرها بالارجوان .

وكدنا لا نقطّف منها سلة واحدة . فقد أمنتْ الطيور من الصيّادين ، وجعلتها مكاناً للقيلولة . يا للخسارة . وكانت أرجلها الحمراء تظهر مزوّقة بين الورق .

وصار يعيّرنا الجيران ، كلما مرّوا تحتها ، بأننا ضمنّاها للطير ، وجعلناها مزاراً له . نَيْسان ، قومي تنصب في عبّها زعطوطاً ، لعلها تكفّ عنا شرّها العصافير .

رائحة الخمر

ملأت رائحةُ الخمر قريتنا ، فالبارحة قُطفت الكروم عند الفجر الأصهب . والليلة تحت الشبابيك ، يوجد مجمرة تزعق فيها النار . وكركة سوداء القامة في زاوية كل بيت .

إنّها رائحة الخمر التي أخذت تنضج . ومجامر النار تأكل عروق الدوالي اليابسة .

نَيْسان ، اجمعي الشال على شَعركِ ، فإنّ النار قويّة ، وقد لوّنت أصابعكِ ، وذهّبت نهديكِ .

مسكين العرزال الذي كان في الكرم ، فقد أتينا بأخشابه لتحرق الليلة . ولم يبق منه سوى نتفٍ صغيرة تحملها الريح في الخندق ، يا ليتنا حملناها للنار !

لقد نامت قريتنا سوى رجل وامرأة ، ومجمرة نار .. مسكين الكرم مسكين ، فلم يبق فيه حبة قرمزيّة أو صفراء . ولقد ملأت الدروبَ رائحة الخمر .

المعصرة

في السحاحير تكدّس العنب ، على حِجار المعصرة . فلقد زقّته الصبايا ، وجرى على فساطينهنّ العصير الأحمر . وشاع في القرية الخبر ، بأنّ الدَّوْر لمن تحمل إبريقاً ، وترقص مزلطة على حِجار المعصرة .

وحُملت الجرار والحطب ، وبعضُ القناديل التي أحبّت رائحة العنب حتّى كادت تنطفىء . ودُعكت العناقيد في الأجران ، فجمع أبدانَها عرسُ اللون ، وساد بينها روح واحدة ، روح الفرح الذي ملأ الدروبَ حتّى كادت تنطفىء .

وغسل الفتيان أقدام البنات ، وهم يغمزون إذا خلع الرداءُ الحياء ، فتتضرّج خدودهنّ بشهوة العناقيد ؛ ولقد دخلت الحركة إلى قلب المعصرة ، لأنّ سلال المرج أفرغت في الأجران ، ولأنّ بعض الفساطين كانت تخلع الحياء .

وَعصَرت النجوم الضوءَ على الزنود العارية ، وأخذت تمتلىء الجرار . فقال الشبّان للصبايا : بعض أيّام ويرجع الصيف ، ويرجع موسم القطاف بلمحة عين ؛ انظرن السماء ففي كلّ نجمة معصرة ، وضحكة من عنب أحمر .

في العرزال

في العرزال ، قطفنا القبلة الثانية ، وما حكى العرزال .

وظلت رائحة الوزّال في البال .

وراحت البلابل تجرّ السماء على الغصون .

وأخذ الطلُّ ينزل على الأوراق الغميسة الأعناق .

وغسلت قمريّتنا الماجنة جسدها بالنار .

وظلّ السُّلم الأخضر في بال عرزالنا ، والقبلةُ الخضراء ظلت في بال عرزالنا .

وعرّى البلبلُ التلال .

وظلّ العري في التلالِ ، وفي عرزالنا .

ضيعة

مشقوعة بالزهر ضيعة نَيْسان ، وتتعكّز على أختها البكر ، وتضع رِجلها على عتبة السماء ، وتحلّ إزارها وتنام في الرخام المدعوك بالصمت ، وينزل شَعرها على خصرها كقميص بنت الملك . مشقوعة بالزهر ضيعة نَيْسان .

ومثل زنّار مقصّب زنّرتها الدرب ، وقبّلت شبابيكها السماء بألف شفةٍ من عاج ، وألف شفة صفراء ؛ ومثل ابنة الملك تركت قميصها على الدرج الأخضر المدعوك برائحة الصنوبر . ومثل زنّار مقصّب زنّرتها الدرب .

ونامت مع أختها في سرير واحد ، وكانت تحسد أختها البكر ، لأنها أغنى منها بالفساطين والطُرَفِ وأقلام الحمرة ؛ وعندما أبغضتها قالت لها : ليفصلن ما بيننا الجسر . ونامت مع أختها في سرير واحد .

وكان على فرجها ألف قبلة حمراء ، وتظلُّ تنتظر مثل نَيْسان شيئاً جديداً مجهولا ، فتضيع عيناها الخضراوان في الشفق ، أو في الوادي العميق ، أو في البحر . وكان على فرجها ألف قبلة حمراء .

كوز الرمان

حَبُّ اللؤلؤ مصفوف قرب أسناني . يا فرحة أناملي بالخناجر المصبوغة ! فكأنّ روحي محبوسة في عُلب البلور .

تيْسان تعالي نفقّي كوزين من الرمّان، فلا ندع حبّة تسقط على الأرض . وإذا وقّع أحدٌ حبّةً فإنّه يقدّم شفته للآخر .

ما أبرع أناملي بصنع اللآلىء . فقد سقط الكوز من يدي ، فكان أجمل من بخنقٍ مفروط على الأرض .

تعالي نحبحب واحداً في فرجكِ ، فحبّه مثل أظافركِ ، يا فرحةَ دمي بالمحابر المفرغة على شفتيكِ .

ومثل دمكِ دمه ، فلطّخي به شفتي ، ومحرمتي . ولقد وقّعتُ الحبوب أربع مرّاتٍ أكثر منكِ ، لأنّ يدي كانت ترتجف .

في قميصي

– حلفتُ بنهدي أني ضيّعتُ القمر .
– أين ضيّعتِهِ يا المخبر . يا المخبر .
– لقد حملته في قميصي ، وضاع مني .

– أحلف بنهدي ، القمرُ زِقُّ نورٍ على كتفي .
– أين وضعتِهِ يا المخبر . يا المخبر .
– لستُ أدري غير أنّه انكسر .

– بعينيكَ ، بعينيكَ ! مات القمر .
– وأين نعشه يا المخبر . يا المخبر .
– لست أدري ، فقد مضى بيننا عمر .

– بنهدي ، بنهدي ، خاطري انكسر .
– هل تحبّينه يا المخبر . يا المخبر .
– مثل قميصي ، ومثل شَعري ، ومثل فؤادي المنكسر .

البرّاجة

انظري في عينيّ يا برّاجة ، وقولي لي متى يعود ؟

فعيناي نجمتان صريعتان على السفح .

وغمران من السنابل جمعتُهما من حقول القمح .

خذي عينيّ ، خذي عينيّ يا برّاجة .

وفيهما كُتُب الغزَل .

وقولي ، عندي أمل ؟

وإذا عرفتِ ، فلك هديّة عندي :

شالي وعقدي .



صاحبة العِقد الازرق

لماتيس

كوخ

جاءت فراشة وتركت من صباغ أرجلها على يدي ؛ ثمّ مضت تقول بأنني علمتها الخطيئة .

وكان الإثم في قلبها ، لأنّ أمّها ولدتها بالأوجاع . ولأنّ الإثم هو الألم الذي يجري في الشرايين ، عندما يُدنس الجمال قلب الانسان وشفتيه .

ومن ذلك اليوم أحسّت الفراشة أنّها تحبّ كلّ شيء . وأنّ قلبها قنديل لا ينطفىء . لأنّ من يحبّ كثيراً ، كمن يبغض كثيراً ، يطعم كلاهما قلبه للنار .

بعد أيّام ، عرفتُ أنّ الفراشة ماتت في كوخ أحد الفقراء ، بعد أن أطعمت جناحيها لسراج هناك . فلم أحزن عليها . ورحتُ أمدّ يدي فوق دروب الحقل ، لأعلم الفراشات الخطيئة ، فيذهبن إلى الأحياء ويبعن أجسادهنّ ، ويحرقن النار على أرجلهنّ الضعيفة .

زورق

زورقي الأخضر ، شراعه الليل ، وأخشابه ملطّخة بالأمل ، وكأننا وُلدنا من أمٍّ واحدة ، فحملنا كلانا شهوة النجمة للسفر ، وقناديل الغروب .

وفي قعره جديلة نور ، وفي مجذافه فرحُ الملاحين . وقد مرّغ ضفّتيه بمنديل أزرق ، فجرى إثم البحر على صدره .

وشَعركِ على جنبه مسدلٌ ، يا المكوّة السوداء .

وجاع البحر لعينيكِ . وجاع البحر .

والليلةَ اشتهت نجمة أن تغيب في زورق .

في زورق أخضر .

أخضر .

الشبّابة

شكَتِ الشبّابة همّها لجبوب السنديان ، قائلة بأنّ قلبها ورقة زيّح الظل ضلوعها ، وأنّ فمها كلمة غزَلٍ بشعر الغابة ، ولون لم يكتمل في جنح عصفور .

وباحت بحلمها لحوض القصب ، فكانت تشعر أن شيئاً يسيل في عروقها ، وأنّ وجعها في الضلوع . ولم يبق في بالها غير جثث الأزهار .

وكشفت بسرّها للرابية كلها ، فبقيت أزقتها ساهرة حتّى الصباح ليالِيَ كثيرة . أمّا الأعشاش فقد هجرتها الطيور منذ زمان .

وقال الراعي للشبّابة بأنّه سينفخ فيها شهرين أو أكثر ؛ ثمّ يكسرها ويرميها في الشمس والمطر . فقالت الشبّابة بأنّ لحنها باقٍ على شفتيه .

حصى الدروب

شقّ النور شارعاً من نافذتي ، ودخل ينهمر على سريري؛ فطفقتُ أشعر بأنّ شلالاً من الارجوان يسيل على أصابعي ، وعلى خصري .

وكأنّ بلادي كلها بيادر مكدّسة على شفتي ؛ لأنّ قلبي مصنوع من فضّة الأنهار ، ومن ذَهب السواقي .

وجعتُ لحصى الدروب ، فـأكلتُ منه ؛ ولأصوات الطيور ، وكلّ حيّ ، فشرّعتُ لها نفسي . ورزح صدري تحت عبء الوجود ، فوهبتُ ساعـدي لإخواني الفقراء والحصّادين والرعيان .

وعندما مرّت عَرَبة جارنا الحطاب ، فوق حجارة دربنا ، خرجتُ حافياً ، وارتميت فيها ، وقلت للعربجي أن يأخذني معه إلى الغابة، لكي أساعده بتقطيع الشجر ، ولكي يشتري بعرَقي غذاء لأطفاله الجائعين .

لوحة

قالتْ شجرة لأختها : جاء الخريف .

فاقشعرّتْ وهَذَتْ : ماذا الخريف . ماذا الخريف .

فأجابتها أختها : شبح مخيف . وامرأة تكفّن شاعراً بشعرها. وأمل ضائع على الرصيف .

فنظرت أختها إلى شَعرها .

فرأتْ أوراقها على الرصيف تشيّع بعضها .

وسمعتْ صهيلَ حصان يهدّم الفلَك .

فتمتمتْ : جاء الخريف . جاء الخريف .

وبات في قلبها ذكر مخيف .

انتحار قنديل

نَضَبَ الزيت في صدره ، واصفرّت شفته الزانية . سأغمركَ بشَعري ، وبمشلح عروس .

وبعشرة ليالٍ من عمره اشترى خنجراً : حربةً من فضةٍ ، ذات حدّ أسود .

لقد نسي نَيْسان ، فأصبحت بعض حروف من دم في قلبه .

ولم يصلّ في حياته ، لأنّ النار في جسده . أمّا خطيئته البكر ، فكانت أنه يحب ،

وأنّ الجمال هو النور المعصور في فمه ، ولقد سكبه على السرير ، والخزانة العتيقة .

لقد انتظر بعض المواعيد ، وعندما ملّ الانتظار ، أعطى شفته لليل ، وغرز الخنجر في صدره .

ألف رابية

وجاء الشاعر عندما أخذت السنونو تهجر سماءنا الغبراء الباردة ، مبدّد الشعر ، غائر العينين ، فقبّل نَيْسان في عينيها . وظلّ على شفتيه أكثر من ألف رابية .

وبقيا متعانقين حتّى مرّت الفصول الأربعة : الأوراق التي دُفنت ، والثلج الذي غمر البيوت ، والبراعم المنبثقة ، والنجوم المهجورة على السطوح .

وكان في عينيها أكثر من ألف بلد ، فتركتها أمام بابنا ، ومضت لتبقى كلمة حُبّ في فم نجمة ، وعلى عتبة شبّاك أحمر . تُرى هل تعود مع الشهور .

وتعرّى هو من قميصه ، وأعطى للفجر عينيه ؛ واندثر ليبقى كلمة شِعر على لسان زهرة ، وعلى دربٍ خضراء . وسيولد ويرجع مع الفصول .

فهرست



